

السياق وقصدية الكتابة في الأدب الساخر، نماذج من خطابات السعيد بوطاجين

The context and the intention in the satirical literature, Saïd Boutadjine discours as a model

إيدير إبراهيم

¹ جامعة ورقلة (الجزائر)، Iddirbrahim2017@gmail.com

تاريخ القبول: 2025/06/02

تاريخ الاستلام: 2024/01/10

ملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع السخرية الذي يحمل دلالات المفارقة بين المقصود من الكلام والمصرح به وذلك من خلال استراتيجية تخاطبية يعتمد عليها المرسل. أين يعبر عن رفضه لبعض الظواهر الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية دون الإفصاح عن ذلك في قالب فكاهي ساخر يمتزج بأسلوب التهم الذي يظهر معنى غير المعنى المضمّر وهو المقصود حقيقة، فينتقد هذا الوضع قصد تغييره ومعالجته. وعلى هذا الأساس جاء اختيارنا على مدونة (وفاة الرجل الميت) فهي تتضمن أسلوب السخرية وفق صوره العديدة، والذي يحمل في طياته نقدا للمجتمع، كما أنّ موضوعها في المعاملات والاجتماعية العامة وما يحدث في مملكة الإنسان من استبداد الحكام وفساد الأنظمة بكلّ وجوهها والتي من خلالها ستتضح معالم الكاتب النفسية والاجتماعية والفكرية. وكان الحاكم والمحكوم محور حديثه سياسة وأخلاقا وانضباطا. وفي مقالنا هذا سنبرز صور السخرية والأنساق المضمرة فيها وكيف يكشف السياق بأنواعه عن المقاصد الإجمالية لخطاب السخرية.

الكلمات المفتاحية: السياق التداولي، الاستراتيجية التخاطبية، السخرية، المرسل والمتلقي، القصدية، الحجاج.

Abstract:

This study aims to know the intention in the SAID Boutadjin's discours, through the influence on the receiver. We will precise the method that used by the sender in order to inform. For this reason, he uses different argumentation technics such as: the argumentation coordinator and the argumentation stell.

The aim of reading the man of the dead is to convince the receiver in the receiver nowadays.

Keywords: Pragmatics study, sender, receiver, intention, context, argumentation.

مقدمة

تعدّ التّداولية مركز اهتمام الخطاب والتّأويل لانشغالها بالبحث عن قوانين ضبط شروط الاستعمال اللّغوي في المقامات المختلفة وإيجاد آليات لتحديد الخطاب وفهم مقاصد المرسل، إنّها دراسة الفعل الإنساني القصدي الذي ينطوي على أفعال بغرض القيام بها لإنجاز غرض معين، وتتعامل (أي التّداولية) مع كثير من الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة في الدّراسات الإنسانية عموماً واللّسانيات خاصة.

ولما كان ينظر إلى الخطاب باعتباره يملك معنى قبلها متّصلاً بمقصديّة المؤلّف، ويتعيّن على القارئ الكشف عنه والتّوصّل إلى فهمه، فإنّه قد أصبحت مسالك المعنى تقوم على مقتضيات وتمثّلات، وأنّ النّص يقبل تأويلات شتى ما دام معرضاً على الدّوام لأن يُقرأ في أي لحظة تاريخية بحسب التّوجّهات الفكرية والإيديولوجية لكلّ عصر.

وفي مقالنا هذا نسعى للإجابة على الإشكالية التّالية:

ما هي الخلفيات الإيديولوجية والثّقافية التي تتحكّم في أدب السّعيد بوطاجين؟ وما هي الاستراتيجيّة التّخاطبية

التي اتّخذها لتوصيل معانيه وتوجّهاته؟ وكيف يكشف السّياق عن المقاصد الإجمالية للخطاب؟

سنحاول في دراستنا هذه أن نبين كيف نقل إلينا الأديب الواقع الاجتماعي، والذي تجذّر عن خطاب ساخر ينتقد الواقع، كما سنشير إلى عناصر المقام في خطابه وكيف تساهم مجتمعة في سيرورة إنتاجية تفاعلية، وهذا لإحداث نوع من التكافؤ بين مقاصد المرسل ومعطيات النّص ودور القارئ في تلقي الخطاب، واستجابة لطبيعة الخطاب التي تقوم على التّصريح والتّلميح، وكذلك استجابة لطبيعة المتلقي الذي هو الراعي تارة والرعية تارة أخرى. وكلّ هذا في ظلّ معطيات ثقافية ونفسية وسياسية ومعرفية، وجميعها عوامل تساعد على اكتشاف المقاصد الإجمالية لأدب السّعيد بوطاجين.

إن الخلفيات المعرفية التي يلجأ إليها المخاطب في خطابه تجعلنا نقف عند مفهوم المرجعية ونشير إلى قيمتها في فهم الخطاب، فيذكر "جورج موتان" أنّ العلاقة بين العلاقات اللّغوية والعالم الخارجي هي التي تحدّد أبعاد الخطاب الحقيقية، فيقول: "إنّ اللغة في ذاتها هي مجموعة من البنى والأشكال، وجودها يرتبط بتجربة المتخاطبين في العالم". وإذا كان التّواصل يشترط وجود مرسل هو مصدر الرّسالة ومرسل إليه مهمّته قراءة الرّسالة وفهمها، فهو أيضاً (أي التّواصل) يشترط وجود معنى يُراد تبليغه لغرض الإخبار أو التّأثير. وإدراك هذا المعنى يختلف بحسب وضعيات إنتاج الكلام وتأويله، وبحسب المرسل والمرسل إليه والعلاقة التي تربط بينهما.

ومن المفاهيم المرتبطة بالمتكلم والتي تُؤخذ بعين الاعتبار في الدّرس التّداولي ونجد لها صدى في الدّرس النّقدي مبدأ القصديّة.

- في مفهوم القصد والقصديّة: يرتبط القصد بالمرجع العام القائم على التّعرف على المستويات اللّغوية للخطاب والمرجع الخاص القائم على فهم العناصر التّوجيهية وتأويلها قصد ضبط الوظيفة الاتصالية التي يهدف إليها الخطاب. ويتمثّل المرجع العام في تحديد المعارف المشتركة بين منتج الخطاب ومتقبّله، وهو أيضاً ضرب من العقد بين الكاتب والمنتج والقارئ المؤوّل، ولذلك تكون عملية ضبط الدّلالات والمقاصد رهينة التّعرف عليها. ذلك أنّ الخطاب نشاط لغوي لا يطلب من قارئه دائماً أن يفهمه، بل وفي كثير من الأحيان يحرضه أن ينفعل ويقترح ويؤوّل ويغيّر، كون النّص تأليفاً جمع بين مقصد وعمل. وعليه، فلغة الخطاب الأدبي لغة مقاصدية، ولغة السّعيد بوطاجين امتازت بلغة تخاطبية في منتهى القصد. والمقصديّة من القصد: L'intention، والمصدر القصديّة، صفة يكسبها النّبيء من القصد، والمقصديّة مصدر صناعي من المصدر الميمي. ونستطيع أن نرمز إلى القصديّة والمقصديّة بالهدف الخطابي أو هدف الخطاب. والقصد في

المعنى: هو ما ينصّ عليه من المفاهيم الجمالية والتفيسية والاجتماعية والعقدية. وقد يما تعلق القصد بالنص، فالقصدية مثلا تبقى من حيث الشكل الأدبي بناء موزونا فقط معتمدا على مستويات لغوية صوتية صرفية نحوية بلاغية ودلالية. والقصدية أهم ما يقوم عليه النص، ويستند الأدب عموما والخطاب عملية تواصلية متكوّنة من متكلم ومخاطب، والمخاطب هو المحور الأساس المقصود بالكلام. فالبحت إذن عن قصدية الخطاب هو بحث عن المعنى من خلال قصدية المتكلم، لأن المقاصد تسود الوظائف اللغوية وتصرفها حسب ما شئت وصولا إلى أهداف إجرائية أو جزئية، يمكن عبرها الوصول إلى تحقيق الهدف الفعلي، كما يرتبط القصد بالعلامة حين الاستعمال وكذلك بالمكونات البرغماتية التي تشكّل عالم الخطاب. وتبقى مسألة القصد تقوم على قدرات القارئ اللسانية والثقافية والمعرفية، ولذلك تتعدّد القراءات وتختلف المقاصد وفقها. فالقصدية تدفع المرسل إلى اختيار ما يراه مناسبا وحالة المتلقي ووضعه هو نفسه كمتكلم، والموقف والظروف المحيطة بالخطاب، كما تكشف عن إيديولوجية محدّدة يريد المرسل أن يحققها.

أولا: سياق إنتاج الخطاب

حين يواجه القارئ خطابا ما لا يواجهه وهو خاوي الوفاض، إنّما يستعين بتجارب سابقة، والمعروف أنّ معالجته للخطاب يعتمد على ما تراكم لديه من معارف سابقة تجمّعت لديه كقارئ قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص السابق له قراءتها ومعالجتها، (خطابي، 1991، صفحة 61) ولما كان نظام اللغة متشابك العلاقات بين وحداته ومفتوحا دوما على التجديد والتغيير في بنيته المعجمية والتركيبية، حتى غدا تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد مجموع السياقات التي ترد فيها، ظهرت نظريات أكدت بأن للسياق دورا هاما في منح الكلمة مفهومها الخاص.

ويرد معنى السياق حسب الباحثة (Josette Ray Debive) "جوزيت راي دوبيوك" في معجمها السيميائي أنّه "علامة ما ورسالة ما، وهو إنتاج دلالي أين يتمظهر المحيط فيها واسعا أو ضيقا، وهو المقام الذي يعطي لها دلالة محدّدة (سياق لغوي، موسيقي، هندسي...)" (Debove, 1979, p. 35). وتركز الباحثة كثيرا على السياق المقامي، والذي تعتبره (أي المقام) حالة الأشياء أو المرسل والمرسل إليه الذي تنتج ضمنه الرسالة ضمنه. والسياق المقامي حسب الباحثة "جوزيت راي" يكون في بعض الأحيان الوحيد والضروري لفك مختلف الغموضات التي يمكن أن تحويها الرسائل.

أما مصطلح السياق في معجم السيميائيات لـ: (J- Greimas, J- Courtes) "غريماس وكورتيس" فهو مجموع النصوص التي تسبق أو تواكب وحدة تركيبية معيّنة وتتعلّق بها الدلالة، حيث يمكن أن يكون صريحا (explicite) أو لسانيا، ويمكن أن يكون ضمنيا (implicite)، ويتميّز في هذه الحالة أنّه سياق خارج لساني (extralinguistique) أو مقامي (situationnel)، وقد ذكر الباحثان في السياق نفسه أن جاكسون في الترسمة التي حدّد بها الوظائف التواصلية وضع السياق كعنصر من أهم العناصر التي تشكّل النشاط اللغوي ومثله بالمرجع، إنّها الوظيفة المرجعية للغة، والتي تعتبر ضرورية في توضيح الإرسالية، سواء أكان السياق منطوقا أم قابلا للتلق. (Greimas & Courte, pp. 16-67) وانطلاقا ممّا سبق، فإنّ السياق بشكل عام والسياق التداولي بشكل خاص هو هذا الكل الذي يحيط بظروف إنتاج الخطاب والأطراف التي ساهمت في هذا الإنتاج من مرسل ومرسل إليه وما بينهما من العلاقات التخاطبية وعنصري الزمان والمكان وما يحيط بطرفي الخطاب من عوامل اجتماعية وسياسية وثقافية... إلخ وأنواع الأغراض والمقاصد التي ترمي إليها مختلف الخطابات بأهدافها المسطرة سابقا.

وتتبعنا لعنصر السياق في أدب السَّعيد بوطاجين يساعدنا على الوصول إلى أغراض ومقاصد خطاباته، والتي قيلت في ظلّ أوضاع سياسية وإجتماعية خاصة، ما جعله يعتمد على استراتيجيات تخاطبية مختلفة للتعبير عن مثل هذه الأوضاع، والكشف عن مختلف الوسائل والطرق الممكنة استعمالها لمحاربتها.

ثانياً: البنية الشكلية للخطاب الساخر

نظراً لما تتميز به السَّخريّة من لداعة وتجريح فقد كانت منبوذة ومرفوضة، لكنّ هذا لا يمنع من كونها تدلّ على الطَّرَافَة وخفّة الظّل، كما تدلّ على سعة المستوى الثقافي للسَّاخر الذي "يعتمد وسائط متعدّدة بعيدة الدّلالة، موازناً بين العناصر اللسانية والوجدانية إلى حدود الالتباس". (العمري، 2005، صفحة 92) لذا فالسَّخريّة وإن ارتبطت دلالاتها بالهزء والتَّحقير فإنّ إتقانها يستدعي ذكاء وفطنة شديدين لا يتوفران في أيّ كان، ولهذا يعتبرها "شوبنهاور" "بعدا كبيراً بين المثالية والواقع (...). فلا يكون لجميع الناس أن يكونوا ساخرين وإلا فقدت جودتها".

1.2. مكوّنات الخطاب السَّاخر: وقد حصرها النّقاد في مكوّنين:

أ- **مكون إنفعالي:** يتجلّى في الاستخفاف المشتمل على الضّحك أو الرّغبة فيه وعلى الإستهجان أو مجرد الإحساس بالمفارقة.

ب- **مكون لساني (بنائي):** ويتجسّد من خلال المفارقة الدلالية وما يترتّب عنها من غموض والتباس، (العمري، 2005، صفحة 87) ومعنى ذلك أن منطلق السَّخريّة يقوم أساساً على الإحساس بمفارقة دلالية يشكّلها تقاطع بنية ضدية بين المعنى الظاهر والمعنى الملتبس، والذي يؤدّي للضحك أو الرّغبة فيه. (مشوب، 2011، صفحة 19)

ولقد كان الأدب العربي الحديث حافلاً بالصّور الساخرة، لأنّ "هذا الأسلوب لم يكن لتوجده ظروف الأمن والإستقرار والحياة الهادئة التي ينظر فيها الإنسان، فتطيب نفسه وتقرّ عينه وينعم بالرّضى وراحة البال". (جير، صفحة 5) لقد عان الفرد مشاكل عديدة تابعة من تكوينه المجتمع العربي الذي تسوده المفارقات والصّراعات السّياسية والاجتماعية، أضف إلى ذلك فساد الأجهزة السّياسية الحاكمة في البلاد وتخاذهل الحكّام في حلّ قضايا المواطن وهمومه. ولهذا تناول الأدب السَّاخر قضايا ومواضيع دينية، اجتماعية، ثقافية متّصلة بالواقع الذي يعيشه الجزائري، فصارت آليات علاجية تطهيرية تساهم وبطريقة فعّالة في مواجهة "التّعصب الدّيني والتّخلّف الفكري والتّصلّب الاجتماعي (...). وما لحظوه من تناقضات في الحياة والشّدوذ عن طبيعتها..." (مشوب، 2011، صفحة 19).

وإذا عدنا إلى خطابات "السَّعيد بوطاجين" نجد أنّ العلاقات والمراتب بين أطراف التّخاطب تختلف وتنوّع حسب مواضيعها ومضامينها، ممّا يجعل هذه العلاقات عنصراً سياقياً مؤثراً في اختيار الاستراتيجية المناسبة لبنائه، هذه الاستراتيجية تتدخّل في اختيار وصياغة أسلوب الخطاب عموماً وسياسة القول فيه.

ثالثاً: قصديّة الكتابة بين التصريح والتلميح

إذا تحدّثنا عن الخطاب كونه فعلاً لغوياً، فإنّ كلّ ملفوظ هو تجسيد لفعل لغوي معيّن، وقد يتّسم هذا الفعل اللّغوي بكونه صريحاً أو عكس ذلك "والأفعال اللّغوية الإنجازية غير المباشرة يتمّ التّوصّل إليها بعد القيام بعملية استدلالية تصبح معها البنية اللّغوية الظّاهرة للملفوظ مجرد ممرّ أو معبر للوصول إلى الفعل الإنجازي غير المباشر الذي يقصد إليه المخاطب، ولذا فإنّ تعرف المخاطب على الفعل الإنجازي غير المباشر من خلال البنية اللّغوية للملفوظ والعملية الاستدلالية التي يقوم بها هو ما يعدّ اكتشافاً لغير المنطوق به من المنطوق دون أن تكون بينهما علاقة منطقية" (سرحان، 1995، صفحة 27). أي أنّ الممر الذي من خلاله نصل إلى ما يرمي إليه المخاطب من قصد هو ما يعرف

بالتلميح، وإنّ أيّ تواصل يكون مقسماً إلى قسمين: قسم منه ضمني والآخر صريح لأنّ عملية الإرسال تكون مرتبطة بالمتلقّ صاحب القول، فنجدّه يتوخّى الأسلوب المباشر ويختار بديلاً آخر يحقق له مقاصده، إلا أنّ هناك بعض المواقف تحتم على صاحب الرسالة استخدام التلميح لا التصريح لكي يتناسب مع طبيعة السِّيَاق لأنّ "الضمّني موجود حيثما نظرت، سواء تعلّق الأمر بالمعنى المعرفي وبالقيمة اللافولية أو بالأعمال غير المباشرة أو حتى بالإخبارات أو برؤية للعالم يختصّ بها لسان ما". (بلانشية، 2007، الصفحات 144-145)

1.3. التلميح استراتيجية تخاطبية:

التلميح طريقة غير مباشرة لإيصال فكرة ما دون التصريح بها مباشرة، حيث يكفي صاحبها بالإيحاء والإشارة لفكرته، وهو عكس التصريح والمباشرة "فهو إستراتيجية غير مباشرة تحتاج من المرسل إلى عمل ذهني يتجاوز فيه الشّكل اللغوي للوصول إلى القصد...، وهذه الإستراتيجية يعرّفها المرسل عن قصد بما يغيّر معنى الخطاب المعرفي، لينجز بها أكثر مما يقول، إذ يتجاوز قصده مجرد المعنى المعرفي لخطابه، فيعبّر عنه بغير ما يقف عنه اللفظ، مستثمراً في ذلك عناصر السياق...، إذ يختار المرسل الاستراتيجية التلميحية استجابة لدواعٍ سياقية تجعله يعدل عن الخطاب المباشر بدافع عوامل معينة مثل السّلطة أو مراعاة التآدّب وما إلى ذلك" (الشهري، 2004، الصفحات 369-371). فهي طريقة فنية غالباً ما تكون أبلغ من التصريح.

أ- **المفارقة:** وهي فن قول شيء ما دون قوله بشكل فعلي أو صريح، حيث تكتسب المفارقة سمة عمق الفن العظيم، وهي ترتبط ارتباطاً بالحداقة والظروف والذكاء، كما أنّها عملية ذهنية أقرب إلى العقل منها إلى الحواس (بن صالح، 2011-2012، صفحة 18). فهي تحتاج كثيراً إلى عمل ذهني من المرسل في إنتاجها، والشّيء نفسه مع المتلقي، حيث يكون للثقافة والخبرات السابقة دور واسع في تحديد مقاصد الخطاب. فالحياة إذن تقوم على تضاد أشياء لا يجب أن تتضاد واجتماع أخرى لا يجب أن تجتمع من منظورنا، حيث "تقوم بنية المفارقة على اجتماع عناصر ثنائية متضادة لا يتوقع لها أن تجتمع في سياق واحد أو موقف واحد، فقد نرى من الأفعال والأقوال ما يبيّن تجاهل العالم وتعالّم الجاهل وانخداع الماكر وما إلى ذلك من المظاهر التي تحمل في اجتماعها وبين طابعها ذلك العنصر الذي يقوم على المفارقة". (بن صالح، 2011-2012، صفحة 9)

● **المفارقة اللفظية:** تتفق الدراسات على أن المفارقات اللفظية نمط كلامي أو طريقة من طرائق التعبير، يكون المعنى المقصود فيها مناقضاً أو مخالفاً للمعنى الظاهر" (سليمان، 1999، صفحة 26) تحمل المفارقة اللفظية إذن معنى يعكس ما تحمله اللفظة من معناها الظاهر، فلا نكتفي في المفارقة اللفظية بالمعنى الظاهري، بل ينبغي على قارئ المفارقة أن يتجاوز القول إلى مقصد القائل، ونمثّل في ذلك في ما ورد في صياغة عنوان مجموعة قصصية (وفاة الرجل الميت)، حيث تحمل هذه الجملة معنى لا يستوي لأنّه غير مألوف، فالوفاة نفسها الموت والتي تعني مفارقة الروح للجسد، وفيه نُسبت الوفاة إلى رجل ميت، ولو نُسبت لأيّ شيء ما عداه لكان ممكناً أن يستقيم المعنى، فلا يمكن لرجل أن يموت مرتين، فكيف يتوفى رجل وهو ميت، وهنا تكمن اللامنتطقية والغموض الناتج عن التّضاد الدلالي الذي تحمله الجملة، فهذه الصّيغة التركيبية وردت على سبيل السّخرية، ويتّضح ذلك من خلال فهم أحداث القصة، والتي تتعلّق أهم أحداثها في مصير الشخصية الرئيسية للقصة، والذي كان يعاني ظلم وقهر الحكام وعمّ الفساد والاستبداد، ثم قتله حقيقة على يد أصحاب السّلطة، فتحقّق فعل الوفاة لشخص لم يكن يحيى حياة كريمة.

وفي مفارقة أخرى يقول " غبّ فجر مكلل بالهزائم الرسمية الجميلة" (بوطاجين، 2000، صفحة 8) ويقصد هنا بشاعة الهزيمة وسلبيتها، وهذا أمر طبيعي، أما أن تكون جميلة فهذا يتنافى مع المنطق، إلا أنه جمع بين نقيضين يجعل القارئ يفهم أن الغرض من هذا التناقض هو التهمك.

ولما يصف الأوضاع السيئة التي وصل إليها الوطن وعلى مختلف الأصعدة يجعلنا نكشف عن الفساد الذي تفشى إذ يقول "الإمام بالسّوط، الجلال بالسّجاد، اللص بالمسبحة والقاضي بالعصا لمن عصى، وقد اعتاد ذلك النّعش الفسيح... أن يركن إلى الهدوء بعد يوم طويل من الكسل المتعب، فينام على الساعة السابعة، وفي الجهات البعيدة ينتعش الرقص والخمر والحلال" (بوطاجين، 2000، صفحة 13) تصوّر لنا هذه المتناقضات اللامنطقية عشوائية الأوضاع أين تبادلت الأدوار بين مختلف الفئات، لتصبح هذه المتناقضات شيئاً مقبولا وربما طبيعيا في زمن اشتدّ فيه الفساد. وهذا الاختيار إجراء يجريه السّعيد بوطاجين إجراء البصير المتبصّر بنفس متلقّيه، ليؤسّس لخطاب معقلن بعيدا عن العواطف التي قد تعصف بالخطاب. والملاحظ في هذا التّوظيف أنّه يستبطن بواطن الإنسان وظواهره وما لهما من أوصاف حسنة وقبيحة، وبهذا يضمن مسارا تواصليا من خلال توظيف ملفوظ محمّل بدلالات إيجابية وسلبية، وهذا ما يسهم في استدراج المتلقي إلى خطابه.

● **المفارقة الزمنية:** الحكاية في حقيقتها سرد للأحداث وفق حبكة معينة تعتمد على ترتيب زمني معين يصنعه الكاتب، إلا أنّ الترتيب الزمني للأحداث قد يتعرّض للانزياح وهذا في تسلسله المعتاد، فلا يتطابق مع الأحداث. فيختلف ترتيب الوقائع في الحكاية عن ترتيبها زمنيا في الخطاب السّردى، وحين لا يتطابق نظام السرد مع نظام الحكاية فإنّه يولد مفارقة زمنية (القصراوي، 2004، صفحة 189)، فيلجأ الكاتب إلى التلاعب والتّحايل في حركة الزمن بين الحاضر والماضي لخلق نص متوازن زمنيا حتى تكتمل صورة وشكل الحكاية ولينجح أيضا في تجسيدها. فيعالج الكاتب زمن الحدث الرّوائي الذي يخلقه بحرية، حيث يقفز ويحذف ويستطيل ويرجع إلى الماضي، وكلّ ذلك حسب معطيات النّص، وهذا ما يعرف بالمرونة والتي تساعد على خلق الإبداع "وإنّ مرونة الزمن الرّوائي كونه زمنا فنيا اصطلاحيا تمنح الرواية الحرية في التّنقل، فيصعد ويهبط أو يتّجه إلى الخلف أو إلى الأمام حسب ما تقتضيه رؤيته الفكرية والعاطفية وما يمتلك من قدرة إبداعية تشكّل بنية الزمن في النّص، (القصراوي، 2004، صفحة 191) ومن هنا تبرز الأهمية التّأثيرية والجمالية لخلق الحركة في الزمن، كما أنها تكشف عن ذكاء الرّاوي، "تعتمد الرّواية الحديثة إذن على الحكاية المتعدّدة الأبعاد والاتّجاهات الزمنية، وبالتالي يلجأ الراوي لتجاوز التعددية الحكائية في زمن الخطاب أحادي البعد إلى المفارقة الزمنية باعتبارها انحرافات يقوم بها الراوي حين يقطع زمن السرد لتجسيد رؤية فكرية وجمالية" (القصراوي، 2004، صفحة 189) وهذا لتحقيق التّأثير والإمتاع والإفادة، وهذه المفارقة الزمنية هي التي توقظ ملكة التّخيّل عند المتلقي.

وللمفارقة الزمنية طريقتان: إما استباق للزمن وإما استرجاع له.

● **الاسترجاع:** يعدّ الاسترجاع من أكثر التّقنيات الزمنية السّردية حضورا وتجليا في النّص الرّوائي، فهو ذاكرة النّص، ومن خلاله يتحايل الراوي على تسلسل الزمن السّردى، إذ ينقطع زمن السرد الحاضر ويستدعي الماضي بجميع مراحل، ويوظّفه في الحاضر السّردى، فيصبح جزءا لا يتجزأ من نسيجه (القصراوي، 2004، صفحة 192)، وذلك للتذكير بها أو لإعطائها مدلولات جديدة تختلف عن السابق أو لغرض توسيع زمن السرد "وليست استعادة الزمن الماضي في الحاضر السّردى مجرد عملية زمنية فقط، وإنما تكشف في جوهرها عن وعي الذات بالزمن في ضوء تجربة الحاضر الجديد، حيث تتخذ الوقائع الماضية مدلولات وأبعادا جديدة نتيجة لمرور الزمن". (القصراوي، 2004، صفحة 193)

استعمل السعيد بوطاجين هذه التقنية الزمنية، فكانت استرجاعاً لأحداث ووقائع مختلفة ومتنوعة، فمنها ما له صلة بطفولته، وهذا ما جاء في قصة (الوسواس الخناس) حيث وقفت شخصية عبد الوالو على مشهد نهب الحكام والمسؤولين ثم وجودهم في المساجد وعلى المنابر الدينيّة يتقنّعون بزّي الإسلام والتّدين "كان عبد الوالو يقف مندهشاً أمام تلك اللوحات الفاتنة التي سمع عنها في الخرافات والأساطير والقصص السّحرية، جردان وقطط في هدنة أبدية. في صباه قالت له جدته أنّ نوحاً عليه السّلام أخذ في السفينة من كلّ شيء زوجين ولم يبال بالقطط والفأران، ومرة عطس الأسد فزلّ الفأر ثم عطس فخرج القط يعدو وراءه وولدت العداوة: أين أنت يا جدّتي الرائعة؟ أين حكاياتك" (بوطاجين، 2000، صفحة 29). فبعد رأيته لذلك المشهد الذي جمع أطرافاً مضادة وحدتهم مصالح متبادلة وأهداف مشتركة على ما يبدو، انقطع السارد من زمن الحاضر يستدعي قصة من الماضي، فغربة المشهد غير المؤلف جعله يسترجع أساطير وحكايات الجدة في طفولته ليؤكّد ما آلت إليه أوضاع البلاد، ومن الاسترجاعات أيضاً قوله: "وداهمه التّذكر: عندما عاد من الأراضي البعيدة، حلم بجزائر الفرح والجنيات والنّساء الشقراوات وممالك المسرات... وسلام وأمن وحكايات بلون الشفق اللازوردي وبالحب وعدوّه". وهو استنكار للأحلام الجميلة لفكرة كانت تستحوذ على ذهنه قبل واقع السرد، إلا أنّ كون هذه الفكرة شيئاً من الماضي يكشف من خلال هذا الاسترجاع خيبة أمل السارد.

يعيدنا السعيد بوطاجين في كثير من المواضيع إلى الوراء كسرد أحداث تذكارية من الماضي يحيلنا من خلالها إلى النقطة التي وقف عنها السارد، والغرض من ذلك خدمة نصوص القصة وتوضيحها والربط بين أحداثها ولجذب القارئ أيضاً.

● **الاستباق:** وهي تقنية زمنية برزت كأسلوب جديد يميّز الرواية الحديثة، ولكنه أقل توتراً في السرد من الاسترجاع... وتظل تقنية الاستباق أقل ظهوراً في النص من الاسترجاع، وذلك لأنّ الرواية تحكي عن شيء مضى وانتهى، ويقوم الراوي باستعادته أو سرد ما يحدث لحظة السرد الحاضر نفسها (القصراري، 2004، صفحة 211). حيث تساعد هذه التّقنية السارد على السرعة السردية لأنها تقوم على الاختزال، ينبئ القارئ إلى الأحداث والوقائع قبل حدوثها في زمن السرد. والاستباقات في هذه المجموعة القصصية نادرة مقابل الاسترجاعات، ومعظمها تحمل في طياتها النظرة التشاؤمية للحياة عامة وللمستقبل بشكل خاص لدرجة الإحباط واليأس والقنوط. ورد الاستباق مثلاً في قوله "قال الراوي وهو مخلوق كذاب لا يؤمن أنّ السّلطان طبّق سياسة التقشف في السنة القادمة ولهذا منع الضحك، وقد أعلنت الصحف في السّنة القادمة أيضاً أنه سيقضي على عنصر الألم وأنّ علماءه يكدّون لتطوير دواء يجعل المواطنين صالحين جداً" (بوطاجين، 2000، صفحة 16) استبق وصف الراوي بأنه كذاب قبل أن يأتي بقوله، والهدف من ذلك التمهيد وتنبيه القارئ بأنّ كل ما سيقال كذب لا أساس له من الصّحة، وفي ذلك سرعة للسرد واختزاله. ومن أمثلة الاستباق أيضاً قوله: "وفي عام 2000 قدم الطاعون...، المخلوق المتثائب كانون الأول من عام 1989" (بوطاجين، 2000، صفحة 111) وقوله أيضاً "أظن أننا لو نقلنا غداً إلى زمان لم يبدأ بعد لعثرنا على نفس الرعب، نفس البؤس، نفس الجنون... ونفس الشلل". (بوطاجين، 2000، صفحة 117)

ومن خلال تفاعل هذه الثنائيات كلّها نرى العبث في الحقيقة والجد في الهزل والمعقول واللامعقول والوضاعة في العظمة والعظمة في الوضاعة والحلو في المر والسعادة في الشقاء والشقاء في السعادة والمقبول في غير المقبول إلى جانب مظاهر النفاق والخداع والرياء، وفي أوجه التناقض بين المقدّمات والنتائج وبين أطراف التّجربة الإنسانية ومفرداتها نشعر من خلالها بزيّف معطيات تلك التجربة شعوراً مقترناً بالإحباط.

● السخرية: تكمن الأهمية التداولية للسخرية في كون مقاصدها تمتد إلى ما وراء النص، وهذا ما يتطلب في تأويلها إلى أن تكون هناك خلفيات ومعطيات مشتركة، "إنّ الهدف من هذا الأسلوب يتمثل في إعطاء المتلقي إمكانية الفهم والتأويل....، والحديث عن المعنى التداولي يحيلنا إلى القيمة الإنشائية للسخرية التي سوف تتجاوز ثنائية المخاطب إلى الشخص الثالث وهو المستهدف في أغلب الأحيان" (ذهبية، 2013، صفحة 24). فنادرا ما يكون المخاطب هو المستهدف من الخطاب. فالجدوى من السخرية هي القول، وبشكل تراكم الحجج المستوحاة من الاقتصاد اللغوي ما يريد المخاطب قوله أو انتقاده أو تقييمه...، وبطريقة غير مباشرة غامضة وبطريقة ضمنية وذكية، ولا يكشف المخاطب التنافر على أنّه منبع للنقد والحكم والتقييم، وبذلك فهو يتخذ مسافة إزاء ما يقول ولا يتحمل مسؤولية أقواله، وبحديثه الساخر والغامض فهو يقوم بإنقاذ واجهته ويتفادى الآخرين افتقاد واجهتهم، (ذهبية، 2013، صفحة 27) فالسخرية إذن تحقق أهدافا تتمثل في النقد للتقويم والتصحيح والتغيير من أجل الأفضل.

سخر المرسل من عدة ظواهر وأطراف منها سياسيا واجتماعية، فسخر من العرب عامة ومن الحكومة ودكتاتورية حكمها وذلّ محكومها، كما سخر من عجز ووهن وانحراف المواطن نتيجة ما يتعرض له من ظلم واستبداد، حاول المرسل إرشاد السلطة الحاكمة وإيقاظ همم المجتمع قصد تقويمه وإصلاحه.

سخر المرسل من العرب ومن القومية العربية "وكانت دنيا العرب شاسعة وحبل بالتنديدات وساحات الإعلام والأقراص المضادة للشرف" (بوطاجين، 2000، صفحة 9) سخر المرسل من واقع يسوده الظلم والاستبداد، واقع يعدّ فيه تأمين السلام وحرية التعبير ضريا من الخيال، وساحات الإعلام خصّصت لمن تسول له نفسه إبداء رأيه في السلطة، حيث أصبح ثمن الكلمة التضحية بالحياة. كما وصف الأمة العربية بالعاجزة والجاهلة والمتخلّفة "الأمم المسكينة التي أرهقها الكسل الرسمي والمصانع المخصّصة للمشانق" (بوطاجين، 2000، صفحة 16). كما سخر من الإعلام العربي الذي يفتقر إلى الديمقراطية الحقيقية وما يدور في الوطن العربي من انتهاكات لحقوق الإنسان على يد حكّامها ومن الإعلام الكاذب وما يروّجه من شعارات تحملها الحكومات "أنت مجرد عامل عربي ضئيل، يريد في إطار حقوق الإنسان أن تتسكّع ويقهقه بحرية في وطن يبدو كبيرا ومتسامحا، ذلك ما قالتها الكتب والإذاعات والصّحف، واجتره الخطباء والأئمة في المناسبات الرسمية جدا، وما في القلب يبقى في القلب" (بوطاجين، 2000، صفحة 26). "لماذا تريد منّي أن أبتسم في هذا التّأبوت العربي؟ آسف إنّني بلا خدود، وهذه الأسنان المبعثرة في فمي لا تصلح سوى للاصطكاك وعض الرياح" (بوطاجين، 2000، صفحة 73). كما سخر من إنجازات الحكام العبيثة الوهمية "وقالت الأخبار: وهكذا سيداتي سادتي تُنجز المشاريع العظيمة، وبهذا نكون قد قضينا على مشاكل المعوقين وأدمجناهم في الحياة الاجتماعية" (بوطاجين، 2000، صفحة 38) وكلّ هذا على حساب المحافظة على مناصبهم وطغيانهم، وإنّ مجيء الإخبار بهذه الطريقة لغرض توجيهي إصلاحي ولتقويم مسار الحكم وإرشادهم إلى الصواب لتحقيق الديمقراطية وتعزيز حكم سليم.

يختار المرسل إذن الإستراتيجية التلميحية استجابة لدواع سياقية تجعله يعدل عن الخطاب المباشر بدافع عوامل معينة مثل السلطة أو مراعاة التأدب وما إلى ذلك. وإنّ هذه الأدوات اللغوية التي وظّفها السعيد بوطاجين في بنية خطابه إنما هي مؤشّر تلميعي على القصد أو لتحديد توجيه المرسل نحو محتوى القضية مثل تلك الأفعال المعجمية التي تدلّ على الافتراضات والتأكيدات والشكوك وغيرها مما يراه المرسل. (المتوكل، 2011، صفحة 176) أظف إلى ذلك لابدّ من الإشارة إلى أنكلا من المجاز والاستعارة والتشبيه وأفعال الكلام غير المباشرة...، من الأدوات اللغوية التي تستعمل في أداء هذه الإستراتيجية.

رابعاً: لسياق وعلاقته بالمقاصد الإجمالية

لما كان السياق من أهمّ الموضوعات التداولية، فإنّ أيّ فهم لخطاب لغوي لا يمكن تحقّقه إلا بتقصي الأوضاع الاجتماعية والسياسية والتاريخية... إلخ، والتي ولدت خطاباً يقوم على مختلف المعارف والتجارب الإنسانية. فالسياق محكومٌ في بنائه العام بغايات تتمركز في قصدية المتكلّم من التّلفظ المتأثّرة بسياقات أخرى خارجية نفسية وثقافية واجتماعية، والمتكلّم هو الذي يأخذ فيه دور الفاعل المتحكّم في الإظهار والإظهار لقصدية السياق، ومن هنا نفهم السياق المبطن من خلال السياق الظاهر. ويعدّ السياق مجمل الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة، وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما، وعلى هذا الأساس جاء تأليف خطاب السعيد بوطاجين في سياق ثقافي واجتماعي وسياسي سائد في تلك الفترة، حيث كانت خطابه دعوة إصلاحية ونقداً لسياسة كانت قائمة في ذلك الزمن.

1.4. المقاصد العقلية: يسعى المخاطب من خلال نتاجه الفكري إلى نسج العلاقة المثالية بين الحاكم والمحكوم من خلال كثافة أساليبه التعليمية والصيغ الإلزامية والتربوية، وخطاب العقل عنده يقوم على وظيفة تشييد أصول السلوك العقلي وتهذيب الأخلاق، فتناول أصول الأمور النفسية وأصول الأمور الاجتماعية وكان يشيّد بأصول الصّرح الأخلاقي في المجتمع من منطلق الدور السياسي، وهو بذلك يسعى إلى تأسيس ما انتدب من أجله وهو بنية السلوك العقلي في المجتمع، كما يسعى إلى تغيير السلطة في ظلّ فكرانية جديدة هي فكرانية العقل.

2.4. المقاصد الانفعالية (الشّعورية): إنّ نتاج السعيد بوطاجين باعتباره مظهرًا من مظاهر التواصل اللساني هو انعكاس لخلجات الدّات ومحصلّة تفاعل الإحساس النّفسي مع الواقع الخارجي، لذلك فإنّ خطابه لا تكون إلا تعبيراً عن انطباعات المرسل حول فكرة ما أو عن تفاعله مع موضوع أو تعاطفه مع حالة أو كرهه أو استحسانه أو نبذه للأفكار والوقائع والممارسات الحياتية، وهذا ما يجعل نتاج السعيد بوطاجين مزيجاً من الانفعالات والصّور الذهنية والأفكار المكتسبة برداء العاطفة. لتصبح العوالم الشّخصية والحالة الشّعورية والإدراكية موجهة للقصدية والتي تؤثر إلى حد كبير في اختيار المرسل وفي استعماله للمقوّمات الفنية والإمكانات اللّغوية.

3.4. المقاصد التّضامنية: إنّ ما يمثّله خطاب المرسل في هذا السياق هو التعبير عن الدور التّعاطلي والتّفاعلي معاً، إذ يسعى المرسل فيه إلى تبليغ معلومات عن وقائع تتّصل بالتّاريخ والحكم والسلطة والرعية، ويسعى إلى إيجاد علاقة بينه وبين المرسل إليه من خلال ما يصوّره من تقارب بينهما في الحالة الاجتماعية والخصائص المشتركة، سواء كان المتلقي مستهدفاً وهو متلقي زمانه أو مفترضا وهو الغائب لخطّة إنتاج الخطاب، داعياً بذلك إلى تجسيد العلاقات الاجتماعية والتّواصل، وهي علاقة تساهم في اختيار إستراتيجية الخطاب الملائمة للتّعبير عن المقاصد.

4.4. المقاصد التّوجيهية: تزخر خطابات السعيد بوطاجين بمجموعة من الأدوات والوسائل اللّغوية، وورودها يتمّ حسب عائد المصلحة. ومن أبرز هذه الوسائل الأمر والنهي، وهذان الأسلوبان هما تعبيرٌ صادق عمّا تضمّنته خطابه من معانٍ وما وعته من نصائح وأداب وتوجيهات. فهي تخاطب العقل تارة وتلامس القلوب تارة وفقاً لما تقتضيه طبيعة المعنى.

الخاتمة:

مجموع القصص التي تتشكل منها مدونة البحث تنتمي إلى الخطاب القصصي الساخر، وتتمثل في كونها تمردا يحمل في طياته رفضا للواقع الراهن واستطلاعاً لغد أفضل، فسخر المرسل من الواقع ومن الحاكم والمحكوم. وتتصاعد حدة السخرية لدرجة الهجاء اللاذع عندما يتناول ممارسات الحكام، محاولاً بذلك التّقد والتّوجيه لتغيير هذا الواقع. عالج المرسل مجموعة من الآفات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية التي شهدتها المجتمع الجزائري في فترة من الزمن بأسلوب تلميعي بمختلف آلياته، والتي تتماشى مع قصده من العملية التّخاطبية. للوصول إلى المعنى التلميعي يحتاج المتلقي إلى معرفة الخلفية الاجتماعية ومعتقدات وثقافة القاص للتّمكن من التأويل الصحيح وبلوغ المقاصد.

لقد كان الحاكم والمحكوم محور حديثه سياسة وأخلاقاً وانضباطاً. كان موضوع القصص في المعاملات والاجتماعية العامة وما يحدث في مملكة الإنسان، أين دعا فيها إلى درء المفسد وإقامة العدل وتنفيذ الأحكام الشرعية.

إن معرفة سياق العصر الذي عاشه المرسل له دور كبير في بلوغ المقاصد. برزت كلّ من صورة الحاكم والمحكوم عنده مثالية، فصالح المجتمع لن يكون إلا من صالح حكامه، وصالح هذه من صالح الحاكم.

عايش السّعيد بوطاجين واقع تهميش المثقف والمبدع وعدم تقدير عمله، فأراد أن يضع لمسته في هذا المجال عن طريق السخرية.

شخصيات القاص مستوحاة من الواقع تكاد تكون حقيقية.

الإحالات والمراجع:

- Debove, J. (1979). *Lexique sémiotique* (éd. 1). Paris: presse universitaire de France (puf).
- Greimas, J., & Courte, J. (s.d.). *Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*. Hachette université.
- أحمد المتوكل. (2011). *قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية*. الرباط: دار الأمان.
- إدريس سرحان. (1995). الأمر كفعل إنجازي غير مباشر. *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية* (11).
- السعيد بوطاجين. (2000). *وفاة الرجل الميت* (الإصدار 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.
- جميل جير. (بلا تاريخ). *نواذر الجاحظ، بقلم الجاحظ، سلسلة عالم الفكاهة*. الجزائر: دار الحضارة.
- حمو الحاج ذهبية. (2013). البعد التداولي للسخرية في الخطاب القصصي الجزائري. *مجلة الأثر*, 17.
- خالد سليمان. (1999). *المفارقة والأدب* (الإصدار 1). عمان، الأردن: دار الشروق.
- سامية مشوب. (2011). السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة. *رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، تخصص: تحليل الخطاب*. جامعة تيزي وزو.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري. (2004). *استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية* (الإصدار 1). لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- فليب بلانشية. (2007). *التداولية من أوستين إلى غوفمان* (الإصدار 1). صابر الحباشة، المترجمون) دار الحوار للنشر والتوزيع.
- محمد العمري. (2005). *البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول*. الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق.
- محمد خطابي. (1991). *مدخل إلى إنسجام الخطاب* (الإصدار 1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- مها حسن القصرراوي. (2004). *الزمن في الرواية العربية* (الإصدار 1). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- نوال بن صالح. (2011-2012). *خطاب المفارقة في الأمثال العربية. أطروحة دكتوراه، تخصص: النقد الأدبي*. قسم اللغة العربية، جامعة بسكرة.